وأفكار سديدة بارعة ، وبيان رائع .

هل تدرى يا سيدى خلاف أننا نقرأ مقالاتك المرة تلو المرة تلو المرة ، ثم لا نكتفى ، ونحس بدافع يدفعنا إلى الإعادة ...

إننا نود لو تتلوها كل يوم ، ولكن يعوقنا عن ذلك أنها غير مجموعة فى كتاب

إن كل ما تكتبه جميل ورائع وحبيب إلى نفوسنا لصيق بها

هذه كلمات صوادق . إنها ليست لك ؛ إنما هى للفكرة التى تدعو إليها وتدافع عنها ، إنها لنا (المقالات) ... لأنك تخدمنا بها وتفيدنا .

(دمشق) بشير صارم

عطر المنصور

للأستاذ رفعت فتح الله

فى إحدى قباب بغداد قرأ المنصور ورقة تشكو ، ثم قبضها فى يده تتلوى ، وقد ظل يردد كلماتها ، يكاد يتمزع من الغضب ، كأنه سحاب راعد : فى عينيه برقه ، وعلى جبينه قطره ، وفوق سمرته غيمه ، ولم يكد يخفف عن الورقة قبضته حتى انتفضت ، كأنها منخنقة فك خناقها ، فبدت آثاره على صفحتها أثناء ، وعلى كتابتها شحوباً !

ألقى المنصور الورقة من يده ، بعد أن ألقى ما فيها فى نفسه ، ولقد ارتعد إذ رأى رعيته تشكو بعض عماله ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فأين يفر الظالم من شكاية المظلوم ؟ وكيف يواجه ظلم العامل حزم الخليفة ؟

وأخذ يفصل أنواع المظالم ، ثم ينثرها فى رأسه ليرسل إليها تفكيره ، فتواردتها آراؤه كأنها حمام سراع إلى حب منثور ، وتزاحمت ، وتضاربت ، حتى أحس ضرباتها فى رأسه ، ثم تلاقت الآراء على رأى سن عليه أمره ، وعقد عليه قلبه : أن يعزل العامل لظلمه ، ويأخذ ماله على عينه ، ويترك المال فى بيت مفرد ، يسمى « بيت مال المظالم » ويكتب عليه اسم صاحبه

ولما استراح إلى رأيه نادى صاحبه ليأمره أمره ، ثم قام إلى مجلس أهله ليقضى حق الأهل ، فاق فى طريقه صبياً يلعب ، فمس فرع أذنه بسبابته ، فنظر إليه الصبى نظرة الصغر إلى الكبر ، فأخذه على ذراعه ، وغمز نقانقه ، وكلمه مداعباً ، ثم قبله على شغف ، وأرسله على مرح قائلاً : إذا كان الحزم مع الكبير مجازاة ، فهو مع الصغير مناغاة :

ونظر غير بعيد ، فإذا رجل يمشى مشية الأسيان ، يرسل الحديث فى نفسه فتتحرك شفتاه بما لا تسمع أذناه ، ويفتح عينيه ولكنه لا ينظر بهما ، كأنهما انعكستا على رأسه ، فتجسمت فيهما صور ما وراءهما من تفكير ، ولم تتصور أشباح ما أمامهما من منظور ، فهجس فى نفس المنصور أنه يرى مظلوماً أصابه بعض عماله ، وارتجع إليه فكره الأول ، فلم يلبث أن أشار إلى الرجل الذاهل إشارة ضاعت فى ذهوله ، فأومأ إلى عصا ألقيت فى طريق الرجل فاعترضته حتى كاد يتعثر ، ولكنه اعتدل ولم يلتفت !

صاح حاجب المنصور : أيها الرجل !

فالتفت الرجل التفاتة كأنها إفاقة للمغشى عليه ، ثم برق عينيه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين

قال المنصور : وعليك السلام يا أسير الشجون ! هل تذكر اسمك ؟ !

قال الرجل : سعيد ... سعيد ... يا أمير المؤمنين !

قال المنصور : أسعيد أنت ؟

قال الرجل : ذاك اسمى لا وصفى ، والأسماء من اختيار الآباء ، والأوصاف من اختيار الأقدار !

قال المنصور : وكيف كنت مع الأقدار ؟

فتأوه سعيد ، وقال :

— جعلت حياتى تتلون تلون الزمن : من سواد الليل إلى بياض الصبح ، ومن حمرة الهجير إلى صفرة الأصيل ... فلقد كان مشرق شبابى مغرب والدى ، وكان ميراثى منه وفراً من الوصايا ونزراً من الدراهم ، فما مددت يدى إليها حتى بعثت فيهما

نشطة العمل ، كأنها رقية التكسب ، فتاجرت وأخلصت للتجارة حتى برّت بي ودرت ، فله درُّها ! فقد صرت أعد أوقاتي بالدنانير حتى خيل إلى أن أشعة الشمس تجمد في يدي ذهباً !

فحدقه المنصور بعينين تطل منهما نفسه المحبة للمال ، وقد كان المنصور يجمع في صفاته قوة الحزم ورجاحة الرأي وحب المال وطهارة اليد . فسطع في عينيه من معنى الذهب بريقه ، ثم غلب عليهما من معنى الحزم حديده ؛ ثم قال : أليس في هذا سعدك يا سعيد ؟ فكيف احتضرك الهم ؟

قال سعيد :

— لقد كنت أمس قريرَ العين بهيجَ القلب ، إذ رجعت من سفرة راشدة — في تجارة رابحة — فدفعت إلى امرأتي ما أحضرتُ من كرائم الأموال ، وطفقتُ أشغلُ يدي بتصفيفها ولساني بتحسينها ، حتى أخذتني نشوة الظفر بما كسبت فأهديتُ ، وأسرعت المرأةُ القبول ... آه ! يالها من عجول ! ! تركتها ضائق النفس ، وخرجت إلى الناس أؤدي حقوقاً لزمتني بالإياب ، ثم رجعت إلى منزلي مع الليل ، فأسرّ إلى حُلماً مُتمماً ، تشيع فيه أضواء الذهب ، وتنوس عليه أهداب الديباج ، حتى استرد الليل بُردته السوداء ، وطوى فيها حلمي الهنيء ، فصحوت أمد يدي ... قالت المرأة : مالك ؟ قلت : أين المال ؟ قالت : المال أخذ ... أحسست أن عقلي أخذ معه ، وقمت أتفحص عن الجدار فما وجدت ثقباً ، وطفت أتوسم في الأثاث فما رأيت أثراً ، فأي لص هجم على بيت كأنه حصن ؟ وكيف تسور أو تدخل ؟ تخيل لي أن عقلي قد اختفق ، وأن صدري قد اشتعل ، فسرت تيهان هائماً كمحترق يفر من نار شبت فيه ! ! . . . وهكذا رأيت قرة عيني تسيل في دموع كأنها ينبوع ! . . . وأحسست بهجة قلبي تطير في خفقان ، كأنها غربان ! ...

قال المنصور : لعل المال مأخوذ غير مسروق

فنظر إليه سعيد نظرة سائلة وهو يردد قوله : مأخوذ ! مسروق ! ... مأخوذ ! مسروق ! ...

فأطرق المنصور عنه قليلاً ، ثم قال : منذ كم تزوجت امرأتك ؟

قال سعيد : منذ ستة

قال المنصور : شابة أم مسنة ؟

قال سعيد : شابة

قال المنصور : ألها ولد ؟

قال سعيد : لا !

قال المنصور : أبرزة إلى الرجال ، أم مقصورة في الحجال ؟

قال سعيد : برزة

قال المنصور : جميلة ؟

قال سعيد : إن وجهها كالدينار : أخذت بريقه واستدارته

فهمس المنصور : وتركت لك رنينه وصفرته

ثم قال : يروقك جمالها إذن !

قال سعيد : إنها كالبدر يا أمير المؤمنين

قال المنصور : ذكية ؟

قال سعيد : إن ذكاءها هو السماء التي تُطلع بدرَها

قال المنصور : تلك امرأة حبيبة

قال سعيد : وذاك اسمها يا أمير المؤمنين

قال المنصور : والمال الفقيد حبيب أيضاً ! وابتسم ، ففز سعيد وابتأس !

قال المنصور : لا تبتئس ، فعسى أن يرجع إليك مالك

ثم دعا بقارورة طيب كان يهتم به ويختص ، وقال : يا سعيد هذا طيب يتفاءل به ، فخذ منه شيئاً عسى أن يكون جلاء همك وصقال نفسك ، واستبشر بعيشه كأنه حظ عصر لك في مدهن ! وتمتع من شميمه كأنه من أرواح الجنة !

فأخذه سعيد وقبله كأنه تميمة سعادة ، واصطانه كأنه مفتاح خزانة ؛ ثم سلم على الخليفة ، وانقلب إلى أهله وقد انتشر الأمل على أسطريه ، كما انتشر الطيب على عطفيه . فلما دخل على امرأته قالت : إني أشم عطراً يتضوع منك . قال : ذاك عطر وهبه لي أمير المؤمنين ، وإني واهب لك منه شيئاً عسى أن يكون لبيتنا فألاً ميموناً . فابتسمت شاكرة للزوج الواهب ، ثم انصرفت مفكرة في العطر الموهوب

دعا المنصور أربعة رجال من ثقاته وأراهم طيبه ، وأشمهم منه ، ثم قال لهم : أقعدوا على أبواب المدينة ، ثم سر بكم وعليه

شيء من هذا الطِّيب فأتوني به . فذهبوا حيث أمرهم الخليفة ، وجعلوا يتربَّصون بمن يمرُّ بهم أريجَ الطيب ، حتى ضمَّ الليل شملتَه السوداء ومضى ، وبعث الصبح في أطاره ؛ فرقعت الأرض بالأقدام والظِّلال ، وهم يترقبون ويتشممون ، كأنهم من كلاب الصيد في توقع الفريسة ، وإذا رجل قد توهج منه الطيب يجتاز أحد الأبواب ، فانقض عليه أحدهم انقضاض عتاق الطير ؛ فاهتز اهتزاز فراخ الصيد ، وغشيت الدهشة في رأسه ، فادت نفسه ، وحارت عينه ، وسأل فلم يجد جواباً ، ونظر فلم يَرَ مناصاً ، وسيق تائهَ المساق حتى قدم إلى الخليفة ، فتقدم ، ثم سلم تسليم مروَّع لا يدري من أين رَوعه ؟

قال المنصور : ما الذي أقدمك ؟

فنظر الرجل إلى الذي ساقه وقال : الجواب عند هذا يا أمير المؤمنين !

قال المنصور : ما اسمك ؟

قال الرجل : حبيب !

قال المنصور : ما أحب اسمك !

ثم مَد رأسه من وراء أنفه وتشمَّم ، ثم قال : وما أطيب طِيبَك ! ...

قال حبيب : هو نفحة من نُمْنك يا أمير المؤمنين

فضحك المنصور ، واستعجب حبيب من ضحكه

قال المنصور . أنَّى لك هذا الطِّيب ؟

فارتد حبيب كأنه لديغ ، ونظر نظرة قد تخشعت جزعاً

فتبسم المنصور ، وقال : لا ترع ، فما أريد بك سوءاً ، وإنما كان مثل هذا الطيب يفوح من سرقة بالأمس ، وقد باح به جسمك اليوم ، وإني أخشى أن يلصق بك ما تتهم به !

قال حبيب : يا أمير المؤمنين ...

قال المنصور : ... وتخفي في نفسك ما الله مبديه ...

قال حبيب : أنا ...

قال المنصور : وأنا أرى على وجهك مسحة براءة ، وعلى يديك مسة طهارة ، ولكني أمرت أن أحكم بما ظهر ، والله ما بطن .

قال حبيب : ليس عندي من المال قديم ولا جديد إلا هدية أهداها إلى من لا أشك فيه

قال المنصور : ومن أهداها إليك ؟

فاعتُقِل لسان حبيب في فمه !

قال المنصور : لقد رأيتك تدرأ عن نفسك حتى كدت تبرأ لولا غموضة تريب تلك الهدية ، فهلا استكملت البراءة ، ونزعت عن يديك تهمة ليست لبوساً لك ! وإني موسع عليك وبخيرك : فإما أن تذكر من أهدى إليك فتجلو صفحتك ويقلب القضاء صفحته ؛ وإما أن تنزل عن الهدية لنعرضها على صاحب المال فتسلم من آخر شيء يعلق به الاتهام ، ويكون ذاك أغنى عن التصريح وأنفى للشك وأبلغ في العذر

كاد حبيب يتكلم فيسلم ، ولكن قلبه خفق فسكت ، ودارت عينه ، ودار من ورائها رأسه ، لا يدري : أيمسك المال على بغض يبعثه اتهام الأمير ! أم يتركه على حب يوحيه إهداء الحبيب ؟ فإما أن يذكر هدية المال خلاصاً فنفسه دون ذلك فداء ، والفداء من سنة الحب ، وما كان لفم طهره الحب أن تدنسه الوقيعة ! ... ولقد تعجب حبيب من صروف الأقدار في تصريف الأموال ، فإنه ما كان ليعبأ بمال حتى يَفتن في جمعه ويُفتن بكنزه ، وما تكاثفت سحابة من كسبه حتى تقاطرت في صرفه ! كأن المال زائر عابر : ما سلم حتى ودع ! ولكن هذه الهدية عريت عنده من معنى المال ولبست معنى القلب ، فما يحسب رنين ذهبها إلا صَدَى الخفوق ! ووثب خياله إلى رجل هنالك قد تجمَّد قلبه جمود الذهب حتى عد خفوقه رنيناً ! . . . رجل هنالك ! . . . وأزعجه الخيال بوثبته ، فصحا من غفوته ، فإذا الخليفة يجسه بعينه ويجانبه صاحب الشرطة !

قال المنصور لصاحب الشرطة : خذ هذا الرجل ، فخيِّره في ما خيَّرته ، وأمهله ، فعسى أن ينجده وقته ، فإن أبى فصب عليه من العذاب ألفَ سوط !

(البقية في العدد القادم)

رفعت فتح الله

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)